بعض نواحى تاريخ الزراعة

للدكتور حامد سليم

عميد كلية الزراعة بجامعة فاروق الأول

درجت الأمم التى سبقتنا فى العلوم الزراعية على أن تكتب تاريخها الزراعى وأن يدرس هذا التاريخ فى جامعاتها كمادة من مواد العلوم الزراعيـة ليقرأ الخلف مشاكل السلف فيفيد منها ولتعرض صورة التطور الزراعى فى البلاد كاملة . ولم تكتب مصر تاريخها الزراعى بعد ولذا فهو لا يدرس فى معاهدها العلمية على شدة الحاجة إلى دراسته . وما من شك يوم يكتب هذا التاريخ أن سيكون لإسماعيل فيه صفحة مخلدة .

وعهد إسماعيل بالزراعة بدأ قبل عهده بولاية مصر وحكمها . فلقد كان قبل أن يدعى لحكم مصر بل وقبل أن يكون ولى عهد لعمه سعيد . كان من كبار زراع البلاد بل أكبر زراعها بلا منازع وكان مثلا وإماما لملاك الأراضى . وقد أجمع المؤرخون وعلى رأسهم .

1. Edwin de Leon
2. Amédée Sacre et Louis Outrebon
3. T. C. Mac Coan
4. Moberly Bell
5. Lord Milner
6. Cromer
7. Heyworth Dunne
8. احمد باشا شفيق

أجمع كل هؤلاء على أن إسماعيل قبل أن يتولى الحكم كان يدير مزارعه الخاصة الواسعة بنفسه ، وبمقدرة ممتازة وكفاية جعلته ينتج أحسن المحاصيل كمًّا ونوعاً ، ويبيعها بأعلى الأثمان وأن التجار كانوا يتسابقون لشراء حاصلاته لامتياز أنواعها وانه نمى ثروته قبل أن يحكم إلى ثلاثة أضعافها وأن دخله

السنوى منها كان ١٦٠٫٠٠٠ جنيه وانه جلب إلى مصر كثيراً من أنواع المحاصيل ومختلف الأنعام والدواجن . وهناك مثل انجليزى يقول « من الزراع من يحيى فينا كل ما يجعلنا نلتفت للزراعة .

Some Farmers survive in us all that makes us turn our hands to agriculture.

وكذلك فعل إسماعيل ، فقد خلق بشخصيته الزراعية مدرسة وطبقة من الزراع قلدوه ثم جاروه فى العناية فارتفع مستواها وأفادت منها البلاد كثيراً من الخير .

ولما ولى الحكم فى سنة ١٨٦٣ وجه همته إلى إنماء ثروة مصر الزراعية بتوفير مياه الرى فشق ترعاً بلغ طولها ٨٤٠٠ ميل أى نحو ١٣٠٠٠ كيلومتر كلفته ١٢٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه . وأهم هذه الترع اثنتان : الابراهيمية بالوجه القبلى والاسماعيلية بالوجه البحرى . وتعد الأولى من أعظم منشآت الرى فى العالم وتروى ٨٥٠٠٠٠ فدان وقد أحييت الثانية قدراً كبيراً من موات رمال مديرية الشرقية . ولقد تمكن الزراع بواسطة هذه الترع الحديثة من زيادة الأرض المزروعة من ٤٠٢٥٠٠٠ فدان فى آخر سنة من سنى سعيد إلى ٥٤٢٥٠٠٠ فدان فى آخر سنة من حكم إسماعيل أى بزيادة ١٣٧٣٠٠٠ فدان فى ١٦ عاماً وكان من نتيجة ذلك بالطبع أن زادت الكميات الناتجة من جميع المحاصيل . وزاد محصول القطن ، فقد كانت الكمية التى صدرت منه فى سنة ١٨٦١ (٥٩٦٢٠٠ قنطار) وبلغت فى سنة ١٨٦٤ أثناء حكم إسماعيل ٢٫٠٠١٫١٦٩ قنطار أى أربعة أضعاف ما كانت تصدره قبل حكمه .

رأى إسماعيل تنظيم وسائل تحسين الزراعة فأنشأ فى سنة ١٨٦٥ مجالس بالأقاليم سميت مجالس تفاتيش الزراعة ، الغرض منها البحث فى الوسائل الكفيلة بتحسين الزراعة وإنمائها . وأنشئت كذلك نظارة للزراعة للعناية بالشئون الزراعية ، وجعلت مرجع مجالس تفتيش الزراعة . ولقد ألغى هذا النظام بعد

حكمه إلا أنه أعيد للحاجة الملحة إليه ، وكان هذا الرجوع إليه والأخذ به ثانياً في سنة ١٩١١ (أى بعد أن بدأه هو بنحو ٤٦ سنة) .

كان محمد على باشا قد افتتح مدرسة للزراعة سنة ١٨٣٦ واختار مكانها فى نبروه واستحضر لها المدرسين العلماء والفنيين الأجانب من فرنسا ولكن لسوء اختيار مكان إنشائها ولأسباب أخرى نقلها إسماعيل إلى العباسية بالقاهرة سنة ١٨٦٧ . وحفز القائمين بالتعليم فيها على التأليف بلغة البلاد ، فأخرج أحمد بك ندى كتابه « حسن الصناعة فى علم الزراعة » فى جزأين كبيرين حاكى فيه المؤلفات الغربية فى ذلك العصر وأدمج فيه الأحوال المصرية وكذلك أخرج ندى بك كتاباً آخر بالعربية فى علم النبات .

ولقد ذكر ملهول Mulhall أن إسماعيل باشا فكر فى حماية الفلاحين من المرابين الذين يرهقونهم بفوائد باهظة لا قبل لهم بها فأنشأ البنوك القروية لتسليف الزراع الفلاحين مبالغ بفوائد معقولة .

وعند ما أصيبت مواشى البلاد وأغنامها بمرض فتك بما قيمته ١٢ مليون جنيه فى سنة ١٨٦٣ أعان إسماعيل الزراع والفلاحين وعوضهم بما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات (٣٫٨٣٧٫٥٦٢) ، وزيادة على ذلك أدخل من الشام ومن الروسيا ومن تركيا وغيرها من الماشية والأغنام والماعز ما أنقذ البلاد من خطر محقق ، ورأى أن يساعد أيضاً بشراء الآلات الزراعية المختلفة لتخفيف وطأة العمل على الحيوانات التى أصبحت قليلة فاستحضر منها الكثير . هذه الطريقة طريقة معاونة الفلاح فى أزماته بمختلف الطرق لم تكن معروفة من قبل فى مصر ، وقد بدأها إسماعيل من ٨٢ سنة ثم أوقفت ولم ترجع إلا قريباً .

أدخل إسماعيل أصنافاً جديدة من القطن ومن القصب وزاد فى زراعة القصب خصوصاً لما نزل سعر القطن بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية .

وأدخل صناعة السكر لتستند إليها زراعة القصب وأحضر لها الآلات اللازمة بما قيمته ٦٠٠٠٠٠٠ جنيه فأعطى البلاد بذلك صناعة زراعية لا تزال تفيدها حتى الآن .

أنشأ الحدائق النباتية وربى فيها ما استجلب من نباتات اقتصادية وأشجار كبعض النباتات الطبية المفيدة والأشجار الخشبية كاليوكالوتس (المسمى خطأ بالكافور) والسرسوع وغيرها حيث أدخلت سنة ١٨٦٥ .

ولم يقصر همه على مصر بل اهتم أيضاً بشئون السودان الزراعية فأرسل إليه البعوث العلمية وجرب فيه بعض أصناف القطن واعتنى بتصريف منتجاته الزراعية .

وقد أولى اسماعيل تنسيق الحدائق وزراعة الزهور وأشجار الزينة لفتة سامية ظهرت فى حدائق قصوره وقصور أنجاله بالجيزة وفى قصره بالجزيرة ، ولم يحرم شعبه من الحدائق الغناء (ولم تكن مصر من قبل عهد إسماعيل تعرف المتنزهات العامة ولم تنسق الحدائق للجمهور) فأنشأ إسماعيل جنينة الأزبكية بالقاهرة سنة ١٨٦٧ وأجرى فيها من الجداول ما يترقرق الماء فيه ، واختلف إليها الناس زماناً ونعموا بمناظرها قبل أن تذهب المبانى الكثيرة التى أقيمت فيها الآن ببهائها وروعتها ورونقها ، وقد كانت هذه الحديقة نسخة طبق الأصل من حديقة مونسو بباريس .

وأقام فى الإسكندرية للغرض نفسه (أى للشعب) حديقة النزهة على ترعة المحمودية وهى الأخرى على قدم عهدها تنطق بما لإسماعيل من أياد بيض على هذا العلم من العلوم الزراعية علم تنسيق الحدائق .

وقد أقام إسماعيل حدائق الحيوان وحديقة الأسماك والأخيرة طبق الأصل من حديقة أسماك باريس .

هذه بعض نواحى إسماعيل الزراعية ، إسماعيل الذى حجبته عن قلوب مواطنيه زماناً دعايات ظالمة أثيرت لأغراض حول اسمه وقد آن أن تنكشف ويظهر الرجل على حقيقته .